أواصر

العدد الثالث عشر

2023 (1444هـ)

الحركاتُ الإصلاحيّة في العالمِ الإسلاميّ (١)

محمد الأحمري

في ظلال المونديال

سلمان بو نعمان

الدين والإصلاح السياسي عند جمال الدين الأفغاني

علي فاضلي

الأزمة الأوكرانية من منظور الواقعية

مركزية الوعي السنني في المشروع الإصلاحي للإمام محمد عبده

رشيد كُهُوس[1]

مقدمة

يعتبر الوعي السنني مرتكزًا أساسيًّا استند إليه كثير من المفكرين المسلمين في مشاريعهم الإصلاحية. تجلى هذا واضحًا في اعتمادهم كليًّا على الوحي من خلال استنطاق آياته للوقوف على أسباب إصلاح المجتمعات وعوامل نهوضها، واستلهامِ السننِ الكفيلة بإصلاح الإنسان وإقامة العمران. وقد ربط هؤلاء الجلة -من زعماء الإصلاح- ربطًا محكمًا بين مشاريعهم الإصلاحية في شتى مجالات الحياة، وبين الوعي السنني الذي أشرقت معه بوادر النهضة الإسلامية والإصلاح الاجتماعي.

ذلك الوعي السنني الذي يعد من الموضوعات المصيرية للأمة المسلمة ومن أكثرها أهميةً لحاضر الأمة ومستقبلها؛ لأنه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمفاتيح الحضارة والاستخلاف البشري والعمران الإنساني الذي نبه عليه القرآن الكريم. ومن ثم فإذا كانت السنن الإلهية تعني النواميس والقواعد التي توجه مسار الاجتماع البشري، وتضبط سلوك الإنسان وحركته في المجتمع والتاريخ، وتنظم شؤون الكون ومجرياته؛ فإن الوعي بهذه السنن والتطبيق العملي لها وفقًا للمناهج المقررة في علوم الوحي والكون، أو علوم التيسير والتسخير، هو السبيل إلى الإصلاح الاجتماعي على كافة الصعد.

ذلك الوعي السنني -الذي نحن بصدد دراسته- أقصد به: الإدراك الحقيقي للمنظومة السننية الحاكمة لصيرورة العمران البشري، الناظمة لحركة الاستخلاف الإنساني والوجود الكوني وسير المجتمعات عامة، ولسلوك الإنسان وحركته في المجتمع، وصيرورته في عالم الشهادة الدنيوي، وفاعليته في التاريخ خاصة، التي تهدف إلى إصلاح الإنسان -فردًا ومجتمعًا وأمة- في المعاش وإسعاده في المعاد، وتحقيق شهوده العمراني على الأمم.

ضمن هذا السياق يُعد الشيخ محمد عبده (ت: 1323هـ/ 1905م) من المفكرين القلائل الذين اعتنوا بالوعي السنني، واستحضروه في مشروعهم الإصلاحي، وأسسوا عليه نظريتهم في التغيير والبناء، حيث أدرك أهمية هذه السننِ الإلهية في الإصلاح الاجتماعي والحضاري فوجه اهتمامه إليها، ليقرر أن الأمة المسلمة لم تقصر في شيء مثلما قصرت في العناية بعلم السنن، ذلك بأنه من أجل العلوم وأرفعها؛ لأنه الفقه الأكبر، فقه الأمة والمجتمع والعمران.

بل إن قارئ كتابات الشيخ محمد عبده يقف على هذا التفكير السنني في تراثه الفكري. من أجل ذلك جاء هذا البحث ليكشف عن مركزية الوعي السنني في مشروعه الإصلاحي، وذلك من خلال فرعين رئيسين: الأول: عن أهمية الوعي السنني في مشروع الإمام محمد عبده. والثاني: عن حضور الوعي السنني في مشروعه الإصلاحي.

الفرع الأول: أهمية الوعي السنني في مشروع الإمام محمد عبده

يُعرّف الإمام محمد عبده السنن الإلهية بقوله: "هي الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون، وعلى حسبها تكون الآثار، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها قوم بـ(القوانين)"[2]. هذا التعريف مفتاحي في سياق الحديث عن الوعي السنني في مشروع الإمام محمد عبده، حيث يلخصه مفهومه في أمرين أساسييْن:

الأول: أن السنن الإلهية تنظم شؤون جميع الموجودات والوجود بأسره، وأن كل الناس خاضعون لها.

والثاني: أنه على حسب الأخذ بالسنن الإلهية تسخيرًا أو عملًا بمقتضاها تكون الآثار، ترديًا وانتكاسًا أو تقدمًا وارتقاء. وعليه، فإذا كانت السنن الإلهية هي الطرائق والنواميس

التي تنظم شؤون الحياة والأحياء؛ فإن أهميتها بالغة في مسيرة الإنسان الاجتماعية والعمرانية؛ ذلك بأنها تضيء للإنسان -فردًا ومجتمعًا وأمة- طريقه في عمارة الأرض والنهوض بأمانة الاستخلاف، وتبصره بوظيفته في هذا الوجود. ومن ثم فإن "نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه، فمهما بحث الناظر وفكّر، وكشف وقرَّر، وأتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه، فَلِمَ لا يعظم تسامحها معه"[3].

إذن، فالكون في نظر الإمام عبده تحكمه سنن الله تعالى التي ارتبط رقي الإنسان بمعرفتها وتسخيرها، فهو لا يستطيع أن يمارس حريته إلا في نطاق نظام الكون المحيط به، كما أنه لا يستطيع أن يغير سننه وقوانينه، وإنما يستطيع أن يستثمرها ويسخرها ويستفيد منها وحسب، والسير في الكون على نظام وفقًا لسنن معينة في تقديراتها الكمية والكيفية، هو القدر أو هو من القدر.

فالله تعالى هو واضع النظام ومسخر الأسباب، والوصول إلى هذه الأشياء بسعي الإنسان، وكل شيء حسن بهذا الاعتبار؛ لأنه مظهر الإبداع والنظام. ولا يقع الإنسان في شيء يسوءه إلا بتقصير منه في استبانة الأسباب وتعرف السنن، وقد أوتي قدرة على العمل اختيارًا في تقدير الباعث الفطري وما يترتب عليه من درء المضار وجلب المنافع.

فينبغي لمن أصابه سوء أن يبحث عن سببه من نفسه، وألا يكتفي بإسناده إلى غيره؛ لأن السيئة تصيب الإنسان بتقصيره وخروجه عن سنن الله تعالى في التماس المنفعة من أبوابها، واتقاء المضار باتقاء أسبابها؛ لأن الأصل في نظام الفطرة البشرية هو ما يجد الإنسان في نفسه من ترجيح الخير لها على الشر، والنافع على الضار[4].

وإن الأمة إذا تجاهلت هذه السنن، ولم تسع لفهمها وإدراكها والوعي بها وتنزيلها في واقعها، أمة غير مأمونة العثار، ولن تنجح في خطواتها ولا في مشاريعها الإصلاحية وبناء مستقبلها .

أضف إلى ما تقدم أن هذه السنن سبيل لمعرفة مقومات النهوض، وإدراك المقاصد وإبصار المخارج وتحصيل المؤهلات وامتلاك الوسائل في مسيرتنا العمرانية الإصلاحية، ومن شأنها أن تمكننا من إبصار الماضي وإصلاح الحاضر وإدراك أسباب تغيير المجتمع من الارتكاس إلى الارتقاء والاهتداء إليها والاتعاظ بها لبناء المستقبل وتحقيق الوقاية الحضارية.

وملاك الأمر كله أن الوعي السنني "لا يشكل لنا وقاية من الأزمات والإصابات التي يمكن أن تلحق بنا، بسبب جهلها أو تجاهلها ومحاولة تجاوزها وحسب، وإنما يشكل لنا دليلًا وصراطًا مستقيمًا للتعامل مع الأزمات وكيفية إدارتها بعد وقوعها، وتجنبها قبل حدوثها؛ كما أن السير في الأرض واكتشاف السنن لا يدل على أسباب السقوط والنهوض فقط، وإنما يمنح العبرة والدروس والفقه بكيفية التعامل مع الأزمات وكيفية تجاوزها"[5].

ونظرًا إلى أهمية الوعي السنني في الإصلاح وجه القرآن الكريم المسلمين نحو الوعي بعالم الشهادة، "فحثهم على النظر والتدبر والاستقراء للكشف عن قوانين المادة وسنن الاجتماع، كما نبه على أهمية تعرف السنن التاريخية، والإفادة من ذلك الاعتبار، وبناء الحضارة وكيفية المحافظة عليها من السقوط، وقد أرشد القرآن الكريم إلى هذه السنن فذكرها نصًّا في بعض الأحيان، ولم يذكرها أحيانًا أخرى نصًّا، وإنما فهمت من النص دلالة وفحوى"[6].

من أجل هذا وجه الإمام محمد عبده اهتمامه إلى السنن الإلهية، واعتمد في تفسيره على منهج سنني أخرج به الدرس التفسيري من التقليد إلى التجديد، والتجزيئية التبعيضية إلى النسقية الكلية. وقد اتخذ الشيخ عبده منهجًا خاصًّا به في تفسير القرآن الكريم، وهو ما يكاد يكون نادرًا في تفاسير المتقدمين قبله، حيث أكد أن فهم القرآن الكريم يكون من حيث هو دين يرشد الخَلق إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وأن ما وراء ذلك من المباحث فهو تابع له، أو مجرد وسيلة لتحصيله. بمعنى أن تفسير القرآن الكريم عنده هو مركز الدائرة لمشروعه الإصلاحي، من أجل التحرر من أغلال التقليد، وفتح المجال أما العقل المستنير بالوحي في التفسير. "فالأستاذ الإمام لم يجمد على ما كتب عند المفسرين القدامى، ولم يلغ عقله أمام عقولهم، بل كان يندد بمن يكتفي في التفسير بالنظر إلى أقوال المتقدمين. وكان حرًّا في تفكريه وفهمه للقرآن الكريم، وصريحًا في نقده ونصحه للتفسير والمفسرين، جريئًا

في ثورتـه عـلى القديـم، ودعوتـه إلى التحـرر بـما أحـاط بالعقـول مـن القيـود وما أوغلـت فيه من الركـود والجمود"[7].

وقـد أنكـر الإمـام عبده على المتقدمـين والمتأخرين اشـتغالهم بالجزئيات على حسـاب الكليات السـننية، وفي هـذا يقـول: "ولم يقصر المصنفـون من المتقدمين والمتأخريـن في شيء من علم الكتاب والسـنة كـما قـصروا في بيـان ما هـدى إليه القـرآن والحديث من سـنن الله تعالى في الأمـم، والجمع بـين النصـوص في ذلـك والحث على الاعتبار بهـا، ولو عنوا بذلك بعض عنايتهـم بفروع الأحكام وقواعـد الـكلام لأفـادوا الأمـة مـا يحفظ به دينهـا ودنياها، وهو مـا لا يغني عنه التوسـع في دقائق مسـائل النجاسـة والطهارة، والسـلم والإجارة، فإن العلم بسـنن الله تعالى في عباده، لا يعلوه إلا العلـم بـالله تعالى وصفاتـه وأفعاله، بل هـو منه أو من طرقه ووسـائله"[8].

ومـا سـبق ذكـره يؤكده الشـيخ رضا حينـما بيّن أن منهج شـيخه عبده يتميز عـن باقي المفسرين الذيـن غفلـوا عـن اسـتحضار النظر السـنني في تفاسـيرهم حيث يقـول: "وأهم ما انفـرد به منهج **العـروة الوثقى** في ذلـك ثلاثة أمور:

-أحدهـا: بيـان سـنن الله تعـالى في الخلـق ونظـام الاجتـماع البـشري، وأسـباب ترقـي الأمـم وتدليهـا، وقوتهـا وضعفهـا.

-ثانيهـا: بيـان أن الإسـلام ديـن سـيادة وسـلطان، وجمع بـين سـعادة الدنيا وسـعادة الآخرة، ومقتـضى ذلـك أنـه ديـن روحـاني اجتماعـي، ومـدني عسـكري، وأن القـوة الحربيـة فيـه لأجـل المحافظـة عـلى الشريعـة العادلـة، والهداية العامة، وعـزة الملة، لا لأجل الإكراه عـلى الدين بالقوة.

- ثالثهـا: أن المسـلمين ليـس لهـم جنسـية إلا دينهم، فهم إخـوة لا يجوز أن يفرقهم نسـب ولا لغـة ولا حكومة"[9].

هـذا وغـيره يؤكـد لنـا محوريـة الوعـي السـنني في المـشروع الإصلاحـي لمحمـد عبـده الـذي ينطلـق مـن تجديـد النظـر في الـدرس القرآني، واسـتحضار المنهج السـنني في التفسـير، ويكشـف لنـا عـن مركزية الهدايات السـننية في إصـلاح واقع الأمة والنهـوض بالمجتمعات المسـلمة. ولعل إغفـال كثـير مـن المفسرين والمفكريـن للمنهج السـنني في فكرهـم ومشـاريعهم الإصلاحية أدى

إلى ضياع طاقات كثيرة؛ لأن السنن الإلهية تُلهم الناس طريق الصلاح في الأرض، ذلك بأن وظيفتها الأساس هي العمل على إصلاح المجتمع البشري أدبيًّا وماديًّا، والسعي لتطهيره من كل الشوائب والآفات، حتى لا يبقى فيه أثر للمساوئ والمعايب، وبذلك يتفادى الوقوع في الكوارث والنوائب والأزمات، ويصبح مجتمعًا صالحًا، جديرًا بأن يوصف بكونه إنسانيًّا، لأنه ينهج نهجًا أخلاقيًّا قيميًّا ربانيًّا.

يقول الإمام عبده مؤكدًا أهمية علم السنن الإلهية وآثار الأخذ به وإعماله: "إن العلم بسنن الله تعالى في عباده، لا يعلوه إلى العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، بل هو منه، أو من طرقه ووسائله، (...) فهو معراج الكمال الإنساني"[10].

يتحصل مما سبق أن علم السنن الإلهية في فكر الإمام عبده من "أعظم الوسائل لكمال العلم بالله تعالى وصفاته ومن أقرب الطرق إليه، وأقوى الآيات الدالة عليه، وهو أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية؛ فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء"[11]. من أجل ذلك جعله منطلقًا لمشروعه الإصلاحي -في فهم الماضي وإبصار الواقع واستشراف المستقبل- وغاية له ومنهجًا ينتهجه في التنظير لنهضة الأمة من جديد.

الفرع الثاني: حضور الوعي السنني في المشروع الإصلاحي لمحمد عبده

في أواخر القرن 19م وبداية القرن 20م (أواخر القرن الثالث عشر الهجري وبداية القرن الرابع عشر) انطلقت جهود المفكرين المسلمين من جديد للعناية بالسنن الإلهية والتأسيس النظري لها، على يد نخبة من زعماء الإصلاح وجلة من علماء الأمة على رأسهم الشيخ محمد عبده، الذي أسس مشروعه الإصلاحي التجديدي على قواعد سننية، منها انطلق وعليها سار وإليها قصد. حيث قدم في كتبه ومقالاته جملة من الأفكار التي رأى أنها مناسبة لإصلاح الوضع الاجتماعي، واجتثاث ما فيه من أمراض من جذورها، من أهمها: ضرورة التحرر من التقليد، والعودة في فهم النصوص الدينية إلى الأصول الأولى قبل نشأة الخلاف، وتحكيم العقل السديد الذي لا يعارض النقل الصحيح. والمدخل الرئيس إلى ما ذكرت هو إصلاح التعليم باعتباره بوابة مشرعة للإصلاح الشامل.

ومن ثم فإن الوعي السنني هو أحد أهم المقومات الرئيسة لمشروعه الإصلاحي النهضوي. بل هو من أهم المفاهيم المركزية له. كيف لا؟ وهو منذ بدايات دعوته في الإصلاح والسنن الإلهية حاضرة في تفكيره؛ إذ الإصلاح والتغيير في تصوره بني على سنن إلهية ثابتة ومطَّردة وماضية لا تتخلف، ولم يقف عند هذا الحد فقط، بل حث على الاهتمام بقراءة القرآن الكريم بمنظار مقاصدي يبتغي الوقوف عند السنن الإلهية وتدوينها والعناية بها، وتأصيل علم الاجتماع على قواعد إسلامية قرآنية متينة فيقول: "إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننًا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بينها العلماء بالتفصيل عملًا بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن ذكره في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها"[12].

ثم دعا إلى تدوين علم السنن الإلهية فقال: "ولا يحتج علينا بعدم تدوين الصحابة لها، فإن الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التي وُضِعت لها الأصول والقواعد، وفُرِّغت منها الفروع والمسائل، وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن، وعالمين بمراد الله من وراء ذكرها. بمعنى أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم، ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها، وبما منحوا من الذكاء، والحذق، وقوة الاستنباط، كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى، ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التي نقلوا نور الإسلام إليها، وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظري المحض، وكذلك كانت علومهم كلها. ولما اختلفت حالة العصر اختلافًا احتاجت معه إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد وغيرهما، كانت محتاجة أيضًا إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه علم السنن الإلهية، أو علم الاجتماع، أو علم السياسة الدينية"[13]. إذ إن تجديد الفكر وإصلاح الخطاب الديني يقتضي تدوين علم السنن؛ لأنه لا تجديد ولا إصلاح بغيرها، فهي الفقه الأكبر؛ فقه المجتمع، فقه الأمة، فقه الحضارة والعمران.

ولذلـك يلـح أشـد الإلحاح عـلى ضرورة التفكير والنظر السـنني إن رمنا الإصـلاح والارتقاء حقًّـا، فيقـول: "أجمـل القـرآن الـكلام عـن الأمـم وعن السـنن الإلهيـة، وعـن آياته في السـموات والأرض وفي الآفـاق والأنفس، وهـو إجمـال صادر عمـن أحاط بـكل شيء علمًا، وأمرنـا بالنظر والفكـر والسـير في الأرض لتفهـم إجمالـه بالتفصيـل الـذي يزيدنا ارتقـاء وكمالًا"[14].

ثـم يضـع يـده عـلى الجـرح ومنـاط البلاء الـذي أصاب الأمـة لما أعرضـت عن هدي السـنن، فيقـول: "تـرى شـعوب المسـلمين يجهلـون هـذه السـنن، وما ضـاع ملكهـم وعزُّهـم إلا بجهلها الـذي كان سـببًا لعـدم الاهتـداء بهـا في العمـل، ومـا كان سـبب هـذا الجهـل إلا الإعـراض عـن القـرآن، ودعـوى الاسـتغناء عـن هدايتـه بـما كتبـه لهـم المتكلمـون مـن كتـب العقائـد المبنية على القواعـد الكلاميـة المبتدعـة، ومـا كتبـه الفقهاء من أحـكام العبـادات"[15].

ويضيـف في موضـع آخـر موجهًـا اللـوم للمسـلمين بسـبب تقصيرهـم في علم السـنن قائلًا: "وقـد سـبق حكـماء المسـلمين إلى بيـان [بعـض السـنن الإلهيـة]، وبـدأ ابـن خلـدون بجعلـه علمًا مدوَّنًـا يرتقـي بالتـدرج كغـيره من العلوم والفنون، ولكن اسـتفاد غير المسـلمين ممـا كتبه في ذلك وبنـوا عليـه ووسـعوه، فـكان مـن العلـوم التي سـادوا بهـا على المسـلمين الذيـن لم يسـتفيدوا منه كـما كان يجـب؛ لأنـه كُتب في طـور تدنّيهم وانحطاطهـم، بل لم يسـتفيدوا من هداية القـرآن العليا في إقامـة أمـر مُلكهـم وحضارتهـم على ما أرشـدهم إليـه من القواعد وسـنن الله فيمـن قبلهم"[16].

ومـن المعلـوم أن الإمـام عبده يشـير هنا إلى تقصير المسـلمين عامـة والعلـماء والمفكرين خاصة في العنايـة بالسـنن، وعدم تأسـيس مشـاريعهم النهضوية الإصلاحية على نـور هداياته العليا. هذا التقصـير "أورث المسـلمين تأخـرًا وتراجعًـا حضاريًّـا، وانكسـارًا تاريخيًّـا، وأفسـح المجال للأمم الأخـرى التـي تمكنـت مـن اكتشـاف السـنن الكونيـة؛ فاسـتذلت الشـعوب والأمم واسـتعبدتها ونهبـت خيراتهـا وتسـلطت عـلى رقابهـا، وجثمـت عـلى صدورهـا، ونجحـت في إضعـاف الأمة وجعلتهـا تابعـةً لهـا، ممـا جعلهـا خـارج الركـب الحضـاري. ومن ثـم فـإن كلَّ أمة أخذت بسـنن البقـاء فإنهـا باقيـة بأمـر الله تعـالى، وكلَّ أمة تنكبت السـنن وعصـت ربها حصدتهـا عجلتها جزاء وفاقًا"[17].

من أجل هذا أصبح الوعي السنني في مشروع الإمام عبده من أكثر الأولويات إلحاحًا، ومن أكبر القضايا التي استدعت اهتمامه الخاص ورعايته الفائقة، وذلك لمركزيته وأهميته في إصلاح الحياة الاجتماعية واستنهاض الأمة، وتوجيه طاقاتها نحو الفعالية الحضارية العالمية والإنجازات التاريخية التي تكون في مستوى المرحلة وتتناسب ومتطلبات واقعها وتحديات عصرها. ذلك بأن الأمم لا تقوم على الجهل، وإنما على الوعي بالسنن الإلهية وحسن تسخيرها والعمل بها؛ فمن ملك ناصية العلم ملك ناصية العالم، ومن ملك العلم ملك القوة، ومن ملك القوة فرض إرادته على العالم، ولا بدَّ أن يأخذ العلم سلطانه وفق السنن الإلهية.

يقول الإمام عبده مبينًا آثار علم السنن وأهمية العناية به: "لا جَرَم أن العلم بعوارض الأمم من السعادة والشقاء هو العلم بالإنسان الذي هو أشرف الموجودات في هذا العالم، وهذا أشرف العلوم، وأهم مباحثه ما يشرح أسباب أمراض الأمم وهلاكها، (...)، هذا العلم هو الذي ينير البصائر، ويصلح السرائر، ولكن المسلمين تجاوزوا بأنظارهم آيات الكتاب الكثيرة التي أرشدتهم إليه، والآيات الكونية في الآفاق وفي أنفسهم"[18]. وتأسيسًا على ما تقدم يمكن الكشف عن تجليات الحضور السنني في المشروع الإصلاحي لمحمد عبده فيما يلي:

أولًا: إعادة بناء الدرس التفسيري على النسق السنني

لقد وقف الإمام الشيخ محمد عبده وهو يفسر القرآن الكريم وقفات غير مسبوقة أمام الآيات القرآنية التي تتحدث عن السنن الإلهية الحاكمة في الكون، والموجهة لسير الاجتماع الإنساني وحركة التاريخ، وكان يرجو أن يؤسس المسلمون لعلم السنن انطلاقًا من الوحي القرآني كما أسسوا لباقي علوم الشريعة.

هذا ومن المعلوم أن تفسير المنار الذي دوّنه السيد محمد رشيد رضا هو للإمام محمد الذي كان يلقيه دروسًا في الأزهر، ويدونها السيد رضا، ويعرضها في جملتها وتفصيلها على الأستاذ الإمام، وقد وصل الإمام محمد عبده في دروسه التفسيرية إلى الآية: 126من سورة النساء، وقد أخذ ذلك خمسة أجزاء من تفسير **المنار**، ثم أتمه الشيخ محمد رشيد رضا ووصل إلى الآية 52 من سورة يوسف.

ومما يدل على اهتمام الأستاذ الإمام بعلم السنن وتناوله العميق لها في الدرس التفسيري، ما جاء في وصف السيد رضا لتفسير شيخه -كما جاء في غلاف التفسير-: "هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور، وصريح المعقول، الذي يبين حكم التشريع، وسنن الله في الإنسان، وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر وقد أعرضوا عنها، وما كان عليه سلفهم المعتصمون بحبلها، وهذه هي الطريقة التي جرى عليها في دروسه في الأزهر حكيم الإسلام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده"[19].

ومن السنن التي تطرق إليها الإمام محمد عبده في تفسيره: سنة الله في إيتائه الملك من يشاء وانتزاعه ممن يشاء، سنة الله فيمن اتبع هداه، سنة الله في المغفرة، سنة الله في جعل العاقبة للمتقين، سنة الله وارثي الأمم، سنة الله في إهلاك الأمم، سنة الله في عاقبة الجهل، سنة الله في الابتلاء والنصر، سنة الله في الاختلاف، سنة الله في التدافع، سنة الله في تمييز الخبيث من الطيب، سنة الله في مكر أكابر المجرمين، سنة الله في تنازع أهل الحق وأهل الباطل، سنة الله في الضلال، سنة الله في الظلم، سنة الله في التزكية وإصلاح النفوس، سنة الله في الهداية، سنة الله في المداولة الحضارية، سنة الله في الجزاء من جنس العمل، سنة الله في الإملاء للكافرين، سنة الله في الأسباب والمسببات. وغير ذلك من السنن الكلية التي استنبطها الإمام من خلال استنطاقه للنص القرآني[20]. ومن ثم فإن الناظر في المشروع الإصلاحي للإمام الأستاذ الذي انطلق فيه من تجديد الدرس التفسيري سيقف على حضور قوي للوعي السنني في تفسيره.

ثانيًا: نبذ التقليد وإحياء النظر العقلي المستنير بنور الوحي

إن التقليد الذي أصاب العقل المسلم بالشلل والعقم وحال بينه وبين التفكير، أدى به إلى الإعراض عن الوعي السنني والغفلة عنه، وتقليد الآباء، واتباع الأهواء. فقد "ربط القرآن المجيد الجمود وموت المنطق بالتقليد الأعمى الذي تراكم في العقل الجمعي السَّلبي للكفار في الآية الكريمة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[21]، نعى على المقلدين الأخذَ بآراء من سبقهم من آبائهم دون بحثٍ ولا تمحيص"[22].

والحاصل أن دعوة الإسلام لاستخدام العقل المتبصر بالوحي لا تقتصر على الأمور الدنيوية فقط، بل هي دعوة أيضًا إلى استعماله في أمور الدين لاستنباط الأحكام الشرعية والعقدية والخلقية، والهدايات السننية الكونية والاجتماعية والنفسية، والاجتهاد في القضايا المستجدة في الواقع. ومن ثم فإن عدم استخدام العقل فيما تقدم وتعطيله عن وظيفته يعد تنازلًا من الإنسان عن إنسانيته؛ لأن العقل هو جوهر الإنسان الذي يميز به بين الخير والشر، والمنفعة والمفسدة، ويكون به أهلًا للخلافة في الأرض.

من أجل ذلك شد نكير الأستاذ الإمام على المقلدين الذين لم يستعملوا عقولهم قط في فهم أسرار الوحي واقتباس أنواره وهداياتها وبصائره، ودعا إلى إعمال النظر وإحيائه. يقول في معرض تفسيره للفظة "الأمر" في الآية الكريمة: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَل﴾[23]. الأمرُ نوعان: أمرُ تكوينٍ؛ وهو ما عليه الخلق من النِّظام والسُّنَن المحْكَمَة، وقد سمَّى الله تعالى التَّكوينَ أمرًا بما عبَّر عنه بقوله: (كنْ). وأمرُ تشْريعٍ؛ وهو ما أوْحاه إلى أنبيائه وأمرَ النَّاس بالأخذ به. ومن النَّوع الأول: أمرُ التَّكوين، أو السُّنَن، ترتيبُ النَّتائج على المقدِّمات، ووصْلُ الأدلة بالمدْلولات، وإفضاءُ الأسباب إلى المسبِّبات، ومعرفةُ المنافع والمضارِّ بالغايات. فمنْ أنكر نبوة النَّبي بعدما قام الدَّليل على صدقه، أو أنكر سلطان الله على عباده بعدما شهدتْ له بها آثارُه في خلْقِه، فقد قطع ما أمر الله به أن يُوصل بمقتضى التَّكوين الفطري"[24].

لذلك نجده في مواطن يحث على التفكر والتأمل في الأكوان و"النظر فيها واستخراج أسرارها واستجلاء حكم اتفاقها واختلافها"[25]. كما كان يدعو أيضًا إلى النظر في إثبات المسائل الدينية والبرهنة على المطالب الاعتقادية من منظور العلم السنني الجامع. ومن ثم فإن نبذ التقليد وإحياء النظر هو منطلق رئيس للإصلاح، ذلك بأن الإعراض عن النور الإلهي وهو "نور العقل الصحيح البريء من الهوى ونزغات التقليد الذي يسير به المرء في طريق الدين هو من الظلم الذي ذم الله أهله وتوعده بالعقاب، فمن ظلم نفسه بإطفاء هذا المصباح فصار يتخبط في الظلمات، فإنه لا يهتدي في سيره إلى الصراط المستقيم الموصل إلى السعادة، بل يضل عنه حتى يهلك دون الغاية"[26].

إن التقليد يصيب العقل بالعطالة، ويوقف حركته ونشاطه، "ذلك بأن غلبة الجمود الذي ران على العقل الجمعي للأمة، ففرقها مذاهب ومزقها شيعًا، وأوقعها فيما وقع فيه من سبقها من الأمم التي تنكب هدي السنن فتفرقت شذر مذر، فضعفت واستكانت وذهب ريحها، فأدى بها ذلك إلى الاشتغال بالجزئيات والأمور الهامشية والقضايا الفروعية على حساب الكليات والقضايا الأصولية، ومنها الفقه الأكبر، فقه الحضارة أو علم السنن الإلهية الذي لم يحظ بالعناية اللائقة به"[27]. من أجل ذلك كان نبذ التقليد وإعمال النظر في نصوص الشرع منطلقًا ثانيًا ومقومًا رئيسًا في المشروع الإصلاحي للإمام المؤسس على الوعي السنني.

ثالثًا: إصلاح التعليم هو المدخل الجوهري للإصلاح

إن التعليم هو الوجه الحضاري لكل أمة، فبصلاحه تصلح الأمة، وبفساده تنهار وتتراجع وظيفتها الحضارية، وتصبح عقول أبنائها مستباحة من قبل الآخر، ومن ثم فإن "إهمال المسلمين لعلوم دينهم ودنياهم والنظر في أقوال أسلافهم، وانصراف الطلاب عن ذلك أو يكادون، فتجدهم لا يقرأون من الكتب الدينية إلا مختصرات وحواشي مما كتبه المتأخرون، لا ترقى بهم إلى تصحيح مقدمات العلوم، وضبط أصولها وأدلتها، وتمييز صحيحها من سقيمها. وهم فوق ذلك إنما يحفظونها دون فهم، ويتلقونها بالتسليم، كأنها الوحي، ويعتبر علم السنن الإلهية من أهم العلوم الدينية والكونية التي تعرضت للإهمال من قبل المسلمين"[28].

من أجل ذلك وضع الإمام محمد عبد إصلاح التعليم ضمن مشروعه الإصلاحي، خاصة أنه عانى في بدايات حياته من جمود الدراسة في الأزهر، وفي المسجد الأحمدي في طنطا، فقد جعل الفقهاء كتب الفقه القديمة وكتبهم -على علاتها- أساس الدين، حتى وإن عارض بعض ما فيها الكتاب والسُّنة، فانصرفت الأذهان عن القرآن الكريم والسنة النبوية الغراء، وانحصرت في كتب الفقه، وقد رأى الإمام بقاء الأزهر على حاله مُحالًا، فلا بدّ من إصلاح شأنه، وإلاَّ بقِي في الذيل، تابعًا لا متبوعًا، ومن ستظلم علوم الإسلام وبقية العلوم.

وقد وضع الشيخ محمد عبده لائحة لإصلاح الأزهر، يهدف منها إلى حذف الحشو الموجود في المناهج، وإضافة علوم جديدة يستفيد منها التلميذ، كذلك عدم معاملة التلميذ بالقسوة والإهانة؛ حتى نُنمي فيه الكرامة والاعتزاز بالنفس، كذلك النظر في القائمين على

التدريس ومراقبتهم، وأن يبثَّ في نفوسهم حبَّ هذه المهنة، وأن يجعلوا هَمَّهم الأكبر هو مستقبل الجيل الذي يعلِّمونه، وليس الحصول على الأجرة الشهرية. إنه الجيل الذي يجب أن ينشأ صاحب نظرة في كل ما يحيط به، بعيدًا عن أن يكون مجرد آلة للصانع؛ ليصبح هو الآلة والصانع والبدن والرأس في آنٍ واحد[29].

كما اهتم الإمام الأستاذ أيضًا بتعليم المرأة وتنويرها إسلاميًّا؛ ولهذا قام بتشخيص "واقع الجهل الذي كانت تعيشه المرأة في عصره، كيف أن النساء قد ضرب بينهنَّ وبين العلم بما يجب عليهن في دينهن أو دنياهن بستارٍ لا يدري متى يُرفع، ولا يخطر بالبال أن يعلمن عقيدة أو يؤدِّين فريضة سوى الصوم، وهو ينفي أن يكون هذا الجهل هو سبب العفة والحياء كما كان يزعم خصوم تعليم النساء"[30].

لقد نادى الإمام بتعلم المرأة، و"تمنَّى أن تنهض القلة المستنيرة من النساء المتعلمات بتكوين جمعية نسائية تقيم المدارس لتعليم البنات، وآثر هذه المهمة لهن على ما يشغلهن من أمور السياسة واستقبال علية القوم في الصالونات"[31]. حتى يسهمن في رقي مجتمعهن وازدهاره ونهضته. ذلك بأن منظومة التربية والتعليم هي أساس النجاح في كل مشروع سياسي أو اجتماعي، ومن ثم يذهب الشيخ عبده أبعد من ذلك باعتقاده أن "الأولوية في كل شيء ينبغي أن تعطى للتربية والتعليم، بل يمكن التغاضي حتى عن وجود مفاسد اجتماعية واقتصادية وسياسية من أجل تأسيس العملية التربوية والسير نحو المستقبل، لأنه إذا انتشرت التربية والتعليم يمكن للمجتمع أن يستأصل جذور كل المفاسد والانحرافات مهما كان نوعها"[32].

وتعبِّر مقالاته[33] في إصلاح الجانب التربوي والتعليمي -("الكتابة والقلم"، و"المعارف"، و"الغاية من علم التوحيد"، و"العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية"، و"تأثير التعليم في الدين والعقيدة" وغيرها من مقالاته وكتاباته)- عن أهمية إصلاح التعليم في مشروعه النهضوي، وعن منهجه السنني في إصلاح التعليم.

ومن ثم اعتبر الإمام عبده إصلاح التعليم مدخلًا لإصلاح الوضع العام للأمة مجتمعًا وسياسة، وذلك من خلال ربط التعليم بالتربية والأخلاق والعقيدة الصحيحة، وتحديد أولوية العلوم وتقسيمها إلى علوم مقاصد وعلوم وسائل.

رابعًا: إصلاح الواقع السياسي

إن إصلاح الأمة يمهد الطريق لإصلاح السياسة وتحقيق الأهداف السياسية الكبرى. يقول الأستاذ الإمام: "إن المعهود في سير الأمم وسنن الاجتماع أن القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد سلطتها وإلزامها الشورى، والمساواة بين الرعية إنما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا، إذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأي عام"[34].

هذا النص يوضح تصور الإمام للإصلاح السياسي الذي ينطلق من إصلاح الأفراد وتربيتهم تربية صحيحة، وتعليمهم تعليمًا نافعًا مثمرًا؛ لأن في صلاحهم صلاح المجتمع، وفي فسادهم فساده، ومن ثم فصلاح الأفراد يتحقق بإنشاء منظومة تعليمية متكاملة ناجحة، تحافظ على الأصول، وتستفيد مما استجد في العصر من وسائل وآليات للتعليم الناجح الذي يصنع جيلًا واعيًا برسالته وواجبه في الواقع.

يقول رحمه الله: "لكن الإسلام دين وشرع فقد وضع حدودًا ورسم حقوقًا، وليس كل معتقد في ظاهر أمره بحكم يجري عليه في عمله، فقد يغلب الهوى وتتحكم الشهوة فيغمط الحق، أو يتعدى المتعدي الحد فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وُجِدَتْ قوة لإقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضي بالحق وصون نظام الجماعة، وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى على عدد كثير فلا بدّ أن تكون في واحد وهو السلطان أو الخليفة.

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم، ولا هو مهبط الوحي. ثم هو مطاع ما دام على المحجة ونهج الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد، فإذا انحرف عن النهج أقاموا عليه، وإذا اعْوَجَّ قَوَّمُوه بالنصيحة والإعذار إليه"[35].

إن الإمام يؤكد أن لا كهنوتية في الإسلام، ولا سلطة مطلقة للحاكم، وإنما الحاكم يطاع ما أقام الحق في الرعية والتزم العدل، واعتصم بالكتاب والسنة، وإلا فـ(لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)، ولا الإخلال بالعدل. إذا بإصلاح السياسة تتحقق نهضة الأمة، ويستمر سلطانها، فالعدل مؤذن بصلاح الإنسان وازدهار العمران. وسنة الله تعالى لا تحابي أحدًا.

خامسًا: قراءة التاريخ من منظور سنني كلي

حين يُذكرنا الوحي القرآني بأحوال الأمم الغابرة والمجتمعات السابقة وكيف جرت عليهم السنن الإلهية من نهوض للحضارات أو سقوط لها، "فإن ذلك كان على سبيل التعليم والإفادة من الدرس والعبرة من التاريخ؛ ليكون تاريخ الإنسان مجالًا رحبًا لعمل العقل ليتعرف منه أساس ازدهار الحضارات وانهيارها، فيعي العبرة السننية من قصص القرآن الكريم. فالكون كلُّه مسرحٌ للعقل وميدانٌ لعمله، وتاريخ الإنسان كلّه مسرحٌ لنظر العقل، والعقل مهيأ للسيطرة الكلية على الكون واحتواء تاريخه، فكرًا وتأملًا، مقدمات ونتائج، علاقات بين الأشياء، أسبابًا ومسببات، تسخيرًا وتوظيفًا، وتلك مهمةُ العقل ووظيفتُه في عالم الشهادة، وذلك واجبه الشرعي الذي ندبه القرآنُ له وحثه عليه وأمره به"[36].

ومن ثم لا بدّ أن نتوجه صوبَ آيات القرآن الكريم، بالقدْر نفسه الذي توجهنا به نحو آيات الأحكام، واستنبطنا منها هذه الكنوز العظيمة في مجال التشريع والأحكام والعقائد، لنكتشف فقهًا اجتماعيًّا عمرانيًّا حضاريًّا في علوم الإنسان والاجتماع البشري، والنواميس الاجتماعية التي تحكم مسيرة الحياة والأحياء، والتي تخلفنا فيها إلى درجة لا نُحسد عليها. يقول الأستاذ الإمام: "والسير في الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حل بهم هو الذي يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغي. نعم، إن النظر في التاريخ الذي يشرح ما عرفه الذين ساروا في الأرض ورأوا آثار الذين خلوا يعطي الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلك السنن، ويفيده عظة واعتبارًا"[37].

فدعوة القرآن الكريم إلى السير في الأرض أو قراءة التاريخ إنما من أجل استلهام الدروس والعبر والهدايات السننية، والوقوف على سنن الله في الأمم الغابرة، وتجنب ما وقعوا فيه من المحاذير. إذ إن قراءة التاريخ واستلهام سننه الهدائية شرط أساس للإصلاح ونهضة الأمة من جديد. يقول الإمام: "إن ما يحفظ التاريخ من وقائع الأمم من دأبها وعاداتها في الكفر والتكذيب والظلم في الأرض ومن عقاب الله إياهم هو جار على سنته تعالى المطردة في الأمم ولا يظلم الله تعالى أحدًا بسلب نعمة ولا إيقاع نقمة؛ وإنما عقابه لهم أثر طبيعي لكفرهم وفسادهم وظلمهم لأنفسهم"[38].

ويضيف في موضع آخر: "أيظن المسلمون أن تنازع الأمم والدول على ممالكهم وسلبها من أيديهم مخالف لعدل الله العام وسننه الحكيمة التي جاء بها القرآن؟ كلا إنه تعالى ما فرط في الكتاب من شيء، ولكنهم هم الذين فرطوا فذاقوا جزاء تفريطهم، فإن تابوا وأصلحوا تاب الله عليهم، وإلا فقد مضت سنة الأولين"[39].

هكذا يقدم الإمام عبده قراءة سننية للتاريخ، من شأنها أن توقفنا على مقومات النهضة والإصلاح، وأن تبوئ الأمة مكانة الريادة من جديد.

سادسًا: فهم الواقع وإبصار المستقبل

إن من مقومات المشروع الإصلاح للإمام محمد عبده نظره إلى الواقع بمنظار السنن الإلهية، خاصة أنه عاش فترة الاحتلال الإنجليزي لمصر وإحاطتهم الاستراتيجية بالعالم العربي والإسلامي في معظم أقطاره، كل هذا جعله يفكر في أسباب تخلف الأمة وتكالب الأمم عليها؛ فوصل إلى نتيجة مفادها أن تنكب الأمة للسنن الإلهية الهدائية هو سبب ما حل بها من أزمات وخطوب، من أجل ذلك ركز في مشروعه الإصلاحي على الإصلاح الديني وذلك من خلال الأزهر الشريف. وما صدر عنه من فتاوى، كان لها أثرها الإيجابي في مقاومة المسلمين للتخلف والمحتل.

ومن ثم فإن فقه السنن الإلهية في تصور الأستاذ الإمام "لا يشكل لنا الوقاية من الأزمات الاجتماعية والحضارية فقط، وإنما يشكل دليلًا هاديًا في إدارة الأزمات ومواجهتها، واكتشاف عوامل البناء الثقافي والفكري والعمراني للأمة في سائر مراحلها التاريخية، وفي جميع عصورها، ذلك بأن الوظيفة الاجتماعية الحضارية لفقه السنن في حماية رحلة الإنسان من الخلل والخطأ والانحراف، وامتلاك الرؤية على تصويب الخلل وتجنب الإصابات، واكتشافِ أفق جديد للإصلاح الاجتماعي والنهوض الحضاري للأمة"[40]. هذا وبقدر إحراز الأمة لفهمٍ أكبَر لتسخير السنن والاستفادة منها والوعي بها، وتنزيل عملي لها "وتطبيقٍ أدق لها، تتبوأ مكانتها على الأرض. وبقدر نقصها في الفهم والعمل بموجبه وتقصيرِها في اللحاق بالحقائق الثابتة، ينعكس على سيرها سلبًا وإيجابًا"[41].

يقول الإمام في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[42]: "هو الأساس الأعظم لسنن الاجتماع في فوز الجماعات الدينية والسياسية والشعوب والأمم في مقاصدها، وغلبها على خصومها ومناوئيها، كما أنه هو الأساس الراسخ لفوز الأفراد في أعمالهم الدينية والدنيوية من مالية واجتماعية، فهذه الجملة البليغة آية من آيات كتاب الله الكبرى في جمع الحقائق الكثيرة، في المقاصد المختلفة في كلمة وجيزة. [إن التقوى هنا هي] اتقاء كل ما يفسد العقائد والأخلاق والروابط الخاصة والعامة، وتحري ما يصلحها بهدي الكتاب والسنة، وما أرشد إليه من سنن الله تعالى في حياة الأمم وموتها، وقوتها وضعفها، وبقاء دولها وزوالها، وكون هذه السنن مطردة في جميع الشؤون العامة من منزلية ومدنية ومالية وحربية وسياسية، لا تبديل لها ولا تحويل، ولا محاباة فيها بين أهل الملل والنحل، وبهذا كله تكون العاقبة المرجوة لهم في السيادة والسعادة"[43].

لقد حارب الشيخ عبده عقائد الجبرية والقدرية، ودعا المسلمين إلى تسخير السنن والعمل بمقتضاها، فالسيادة والسعادة لا تتحقق بالأماني المعسولة، ولا بمجرد الانتماء إلى أمة الإسلام، وإنما يتحقق ذلك لمن دخل البيوت من أبوابها، وأخذ بأسباب ذلك كله.

سابعًا: إحياء الجامعة الإسلامية

إن فكرة إحياء الجامعة الإسلامية بدأها الشيخ جمال الدين الأفغاني ثم حمل لواءها الشيخ محمد عبده. موضوع هذه الفكرة هو: "إزالة الشقاق والتفرق الذي حدث بسبب المذاهب، وجمع كلمتهم على مصالحهم المشتركة في دنياهم ودينهم"[44].

ومن ثم فإن دعوة الشيخ عبده إلى إحياء الجامعة الإسلامية تكشف عن عمق وعيه السنني، وإدراكه لسنن إحياء الأمة وحفظ بقائها. ذلك بأن فكرته في الدعوة إلى الوحدة الجامعة للأمة مستنبطة من سنن الله في الاعتصام بحبل الوحدة والاجتماع، يقول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[45].

يفسر الشيخ عبده هذه الآية بقوله: "إن حياة الوطن وارتقاءه باتحاد كل المقيمين فيه على إحيائه، لا في تفرقهم ووقوع العداوة والبغضاء بينهم ولا سيما المتحدين منهم في اللغة والدين

أو أحدهما، فإن هذا من مقدمات الخراب والدمار، لا من وسائل التقدم والعمران، فالإسلام يأمر باتحاد اتفاق كل قوم تضمهم أرض وتحكمهم الشريعة على الخير والمصلحة فيها -وإن اختلفت أديانهم وأجناسهم- ويأمر مع ذلك باتفاق أوسع، وهو الاعتصام بحبل الله بين جميع الأقوام والأجناس"[46].

لقد استهدف الشيخ عبده إحياء الوحدة الإسلامية الجامعة باعتبارها الحجر الأساس لكل إصلاح اجتماعي وتغيير حضاري؛ ذلك أن الوحدة حبل ممدود من سماء الوحي إلى أرض الواقع، يمنع الأمة الشاهدة الحاملة للرسالة المبلغة عن ربّ العالمين من السقوط في مستنقعات التنازع والفشل، ويحفظ بيضتها من الانكسار، وجماعتها من الافتراق، ويجعل مجتمعها آمنًا قويًّا متماسكًا؛ ذلك بأن الوحدة الإسلامية -التي يدعو الشيخ عبده إلى إحيائها- ضرورة شرعيّة في حق المسلمين، يجب عليهم اقتحام العقبات الكأداء لتحقيقها، ودفع المعوقات التي تحول دونها. فإسلامنا مَخرومٌ حتى يلتئم شملنا ونكون أمةً واحدة؛ لأن الإسلام دين الوحدة والجماعة لا دين التفرقة والانقسام.

أضف إلى ذلك أنه لا يمكن التغلب على مخاطر الأعداء ومواجهات التحديات المعاصرة إلا بنبذ الفرقة والانفصام، واللجوءِ إلى الوَحدة الإسلامية الجامعة. ولا مطمع للأمة في استعادة هويّتها وإصلاح واقعها وتثبيت وجودها في العالم إلا بلزوم الوحدة؛ فبها تواجه أعداءها، وتحفظ مجتمعها وتحقق أمنه وسلمه، وبضدها تتردَّى في مهاوِي التقاطع والتنابذ والفتن ما ظهر منها وما بطن.

ومن ثم فالوحدة الإسلامية التي هي من المصالح العليا عند كل أمة، ومن الشروط الأساس لحفظ نظامِها العام وأمنها الاجتماعي، كانت ولا تزال شرط حياة هذه الأمة وعزها وكرامتها وازدرها عمرانها وسر نجاحها وتقدمها. هذه الوحدة لا تتحقق في الواقع إلا في إطار الرسالة الإلهية؛ لأن هذه الرسالة هي القادرة على تربية الفرد والمجتمع وَفق سنن هادية وقيمٍ سامية تزول معها كلّ أسبابِ الفرقةِ والتشتت بين أبناء الأمة الواحدة.

خاتمة

من خلال ما تقدم أصل إلى ما يلي:

- إن الشيخ محمد عبده من أساطين الفكر السنني الإصلاحي في العصر الحديث.
- إن شخصية الشيخ محمد عبده من الشخصيات المسلمة التي تميزت بفكرها السنني، وبحضور السنن الإلهية في مشروعها الإصلاحي.
- إن الإمام عبده سار في مشروعه الإصلاحي على النسق السنني، والتزم به في كافة خطواته وتنظيراته الإصلاحية في المجالات المختلفة.
- إن الوعي السنني كان حاضرًا بعمق وبقوة في المشروع الإصلاحي للشيخ عبده يتجلى ذلك في تفسيره السنني للقرآن الكريم، وتجديده للخطاب الديني، ونبذه للتقليد ودعوته إلى إحياء وظيفة العقل في النظر، وإحياء الجامعة الإسلامية، وإصلاح منظومة التربية والتعليم من أجل إصلاح الواقع، والتزامه الفلسفة السننية في قراءة التاريخ وإبصاره وفهم الواقع وتقويمه واستشراف المستقبل وصناعته.

وفي الأخير لقد نجح الإمام محمد عبده في توجيه اهتمام مفكري الإسلام وعلمائه وباحثيه إلى علم السنن الإلهية، تقعيدًا وتأصيلًا وتنظيرًا وتدوينًا.

الهوامش

1. أستاذ بكلية أصول الدين بتطوان، ورئيس شعبة أصول الدين وتاريخ الأديان –جامعة عبد المالك السعدي –المغرب.
2. محمد عبده، **الإسلام دين العلم والمدنية**، دراسة وتحقيق: عاطف العراقي (القاهرة: دار قباء، 1998)، ص132.
3. محمد عبده، "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية"، مجلة **المنار**، المجلد الخامس (16 جمادى الآخرة 1320هـ)، ص443. جوهري طنطاوي، **أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام** (مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1354هـ/ 1935م)، ص18.
4. ينظر: محمود نفيسة، **مبدأ السببية في الفكر الإسلامي في العصر الحديث** (دمشق–بيروت: دار النوادر، 1421هـ/ 2010م)، ص517. رشيد رضا، **تفسير المنار**، 5/ 218. محمد مبارك، **نظام الإسلام العقيدة والعبادة** (دمشق: دار الفكر، 1388هـ/ 1968م)، ص83.
5. عمر عبيد حسنة، **المنهج السنني أفق حضاري متجدد** (بيروت–عمان: المكتب الإسلامي، 1430هـ/ 2009م)، ص30.
6. محمد أمحزون، "العلم بالسنن الربانية"، مجلة **البيان**، العدد 115، (1997م)، ص 50.
7. عبد الغفار عبد الرحيم، **الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير**، ط1، (المركز العربي للثقافة والعلوم، 1400هـ/ 1980م)، ص177.
8. محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م)، 7/ 416.
9. رضا، **تفسير المنار**، 1/ 11.
10. نفسه، 7/ 417.
11. نفسه.
12. رضا، **تفسير المنار**، 4/ 114. محمد عمارة، **الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده** (القاهرة: دار الشروق، 1993م)، 5/ 95.
13. رضا، **تفسير المنار**، 4/ 115. محمد عمارة، **المذهب الإصلاحي للإمام محمد عبده** (القاهرة: دار السلام، 1430هـ/ 2009م)، ص78.
14. رضا، **تفسير المنار**، 1/ 21.
15. نفسه، 9/ 482.

16. رضا، تفسير المنار، 8/ 97.

17. كهوس رشيد، **الوظائف العامة للسنن الإلهية**، مجلة الداعي (الهند: السنة: 46، العدد1-3، محرم-ربيع الأول 1443هـ/ أغسطس-نوفمبر2021م)، ص12.

18. محمد رشيد رضا، ﴿**رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا**﴾، مقال منشور في مجلة **المنار**، المجلد الأول (جمادى الآخرة 1316ه/ نوفمبر 1898م)، ص609-610.

19. **تفسير المنار**، محمد رشيد رضا، ط2، (دار المنار، 1947م)، صفحة الغلاف.

20. ينظر: رمضان خميس زكي الغريب، **فقه السنن الربانية ومدى إفادة المسلمين منها قراءة في فكر الإمام محمد عبده**، دار المقاصد (مصر: دار المقاصد: 1431هـ/ 2015م)، ص32-33. رضا، **تفسير المنار**: (1/ 199، 2/ 393-394، 3/ 17، 3/ 56، 3/ 222، 3/ 299، 4/ 121، 4/ 208، 4/ 237، 4/ 367، 5/ 122، 5/ 179، 7/ 257، 7/ 290...).

21. كهوس رشيد، **الفكر السنني وآفاق النهوض الحضاري**، حاوره: محمد قاسمي ومصطفى فاتيحي، موقع مركز الأمانة للأبحاث والدراسات العلمية: https://cutt.us/nnmU0

22. القرآن الكريم، "سورة الزخرف"، الآية 23.

23. القرآن الكريم، "سورة البقرة"، الآية 27.

24. رضا، **تفسير المنار**، 1/ 203.

25. عمارة، **الأعمال الكاملة**: 4/ 120.

26. ينظر: رضا، **تفسير المنار**، 3/ 40. بتصرف.

27. ينظر: كهوس، **الفكر السنني وآفاق النهوض الحضاري**، مركز الأمانة للأبحاث والدراسات العلمية. مرجع سابق.

28. نفسه.

29. ينظر: عبد الحليم عويس، "التربية وإصلاح الأمة في مقالات محمد عبده"، المنشور بموقع الألوكة، بتاريخ: 2-3-2014. عمارة، **الأعمال الكاملة لمحمد عبده**، 3/ 81.

30. محمد عمارة، **المذهب الإصلاحي للإمام محمد عبده**، ص117.

31. نفسه، ص118.

32. ينظر: أبو صفصاف عبد الكريم، **حركة محمد عبده وعبد الحميد بن باديس وأبعادها الثقافية والاجتماعية والسياسية**، ط1(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين (272)، 2007)، 1/ 365 وما بعدها.

33. ينظر: هذه المقالات في: الأعمال الكاملة لمحمد عبده، الجزء الثالث/ الصفحات: 9، 15، 33، 57، 159.

34. محمد رشيد رضا، **ملخص سيرة الإمام**، مجلة المنار، المجلد 8، (جمادى الآخرة 1323هـ)، ص401.

35. محمد عبده، **الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية**، مجلة المنار، المجلد 5 (سبتمبر 1902)، 5/ 441.

36. محمد السيد الجليند، **الوحي والإنسان – قراءة معرفية** (القاهرة: دار قباء، 2002)، ص73. بتصرف.

37. رضا، **تفسير المنار**، 4/ 117.

38. عبده، محمد، **تفسير جزء عم**، ط3 (مصر، 1341هـ)، ص17.

39. رضا، **تفسير المنار**، 2/ 393.

40. كُهُوس، **الوظائف العامة للسنن الإلهية**، مجلة الداعي، مرجع سابق، ص17.

41. ينظر: إبراهيم الوزير، **على مشارف القرن الخامس عشر الهجري: دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر**، ط4 (لبنان: دار الشروق، 1409هـ/ 1989م)، ص8.

42. القرآن الكريم، "سورة هود"، الآية 49.

43. رضا، **تفسير المنار**، 4/ 117.

44. محمد رشيد رضا، "مسألة اجتماع صاحب المنار بالملك فيصل"، مجلة **المنار**، المجلد 29، (ذو الحجة 1346هـ)، ص180.

45. القرآن الكريم، "سورة آل عمران"، الآية 103.

46. رضا، **تفسير المنار**، 4/ 18.